

المضامين العلمية في الرحلات الحجازية الجزائرية - رحلة الورثيلاني أنموذجاً

• حبيب بوزوادة

• جامعة معسكر

• habibbouzouada@gmail.com

تاريخ القبول: 2018-11-24

تاريخ الارسل : 2018-05-19

الملخص : تعتبر الرحلات الحجازية مدونة ثقافية ودينية ومعرفية، تقدم للقارئ صورة عن ثقافة العصر، وضمن هذا النمط تأتي رحلة الورثيلاني، التي قام بها خلال القرن الثامن عشر، من موطنه (بني وثيلان) إلى (مكة المكرمة)، حيث أدى مناسك الحج، وسجل في هذه الرحلات مشاهداته، ومعارفه، وأفكاره المختلفة، مما جعل هذه الرحلة دائرة معارف حقيقية.

الكلمات المفتاحية: الرحلات؛ المعرفة؛ الحجاز؛ الورثيلاني؛ الجزائر

The scientific implications of the Algerian Hijaz flights - the journey of the warthilani

Abstract : The journey of the Hijazi is a cultural, religious and cognitive code that provides the reader with a picture of the culture of the times. In this manner, the journey of the Warthilani, which he made during the 18th century, comes from his home (Baniwarthilani) to Mecca, His trips, sights, knowledge, and various ideas made this trip a true circle of acquaintances.

Keywords: trips; knowledge; Hijaz; warthilani ; Algeria

المقدمة:

لقد شكّلت الرحلات الحجازية خلال العصر العثماني جسراً للتواصل الثقافي بين البقاع الإسلامية المقدّسة وأطراف العالم الإسلامي، وخصوصاً في المنطقة المغاربية التي ازدهر فيها هذا النوع من الكتابة التاريخية-الجغرافية، حيث يتمّ في العادة توثيق يوميات الرّحّالين، وسرد التجارب التي مرّوا بها، ووصف البلدان والمسالك، مع التركيز على الشوق والحنين إلى القبر النبوي، والكعبة المشرفة.

غير أنّ اللافت في هذه الرحلات هو حرص المؤلّفين على تقديم الفوائد العلمية، في مجالات المعرفة المختلفة، وخصوصاً في التوحيد والفقه والتصوّف، مع سرد الفهارس والإجازات والأثبات، إيماناً من مثقفي تلك المرحلة بأهميّة الصلة العلمية بين السلف والخلف.

ونظراً لثراء الرحلات الحجازية بالمحتوى العلمي؛ فإني أسعى لتسليط الضوء على المضامين المعرفية في رحلة (الحسين الورثياني)، التي تعتبر من الرحلات المكتملة في البناء، والمسار، والمحتوى.

المطلب الأول: لمحة عن الرحلات الحجازية في الجزائر خلال العصر العثماني

نشطت الكتابة الرحلية في الجزائر خصوصاً وفي سائر بلاد المغرب على وجه العموم خلال العصر العثماني، وقبل هذا العصر أيضاً، فقد ظهرت العديد من الكتابات ذات الطابع التسجيلي التوثيقي لأسفار ورحلات في اتجاهات مختلفة، (المغرب، مصر، الشام، الحجاز وغيرها)، غير أنّ الرحلات الحجازية استأثرت باهتمام الكتاب الجزائريين، وأهل المغرب بوجه عام، مثلما يشهد بذلك المستشرق الروسي كراتشكوفسكي الذي يقول: "وينافس المغرب سوريا من حيث الكمّ فيما يتعلّق بالمصنّفات المتصلة بالجغرافيا، وهنا أيضاً نجد أنّ الدافع الأول كان هو الرحلة إلى الأماكن المقدّسة، أي إلى الحج، ولم يخرج وصف الرحلة عن الأطار القديم، وتمّ تدوينه في الغالب على هيئة يوميات، أمّا المؤلّفون أنفسهم فإنّ أكثرهم كانت تنتمي إلى الوسط الصوفي من بين العلماء المحليين"⁽¹⁾.

لقد تحوّلت الأسفار إلى البقاع المقدّسة بغرض الحج أو المجاورة والإقامة إلى ذريعة للكتابة،

فهي سبب قويّ لصياغة خطاب أدبيّ عاطفيّ، يفوح بالشوق والحنين إلى المعاني السّامية التي تمثّلها المشاعر المقدّسة، قال محمد رستم: "ولا يذهبنّ عنك أنّه نشأ لهذا السّبب نوعٌ من الرّحلة وُسِمَ بأدب الرّحلات الحجازية، وكان أهل المغرب والأندلس أغزر النّاس تأليفاً فيه، وأكثر لحفاً به"⁽²⁾، وبالتركيز على الموروث الأدبي الجزائري نقف على المنجزات الرّحلية الحجازية التالية:

1- رحلة أبي عصيدة البجائي (القرن 9هـ/15م) المسماة "أنس الغريب وروض الأديب"، وهي أثر أدبيّ مفقود، ذكره البجائي في رسالته إلى صديقه المقيم بالقاهرة أبي الفضل المشدالي، وفي الرّسالة إشارات ونُبدٌ من هذا المؤلّف، قال أبو القاسم سعد الله: "أما عن مكان تأليفه وترتيبه ومحتواه فيقول أبو عصيدة أنه ألفه أثناء مجاورته الثانية للحرم النبويّ، ونفهم من ذلك أنّه كتبه بعد زيارته للحجاز للمرة الثانية، وعزمه على الإقامة هناك إلى أجل غير مسمّى، ويقول عن ترتيبه أنّه جعله في مقدّمة وأبواب وفصول"⁽³⁾.

وتأتي أهميّة رحلة البجائي من كون مؤلّفها ذا عارضة لغوية جيّدة، وثقافة أدبية واسعة، بالإضافة إلى إقامته بالحجاز (المدينة المنورة) فترة تسمح له بكتابة نصّ رحليّ في المستوى.

2- رحلة عبد الرحمن المجّاجي (تاريخ الرّحلة 1063هـ) وهي رحلة شعريّة حجازية، تؤرّخ لمسيرة ناظمها من موطنه (مجاة) بنواحي غليزان، إلى بلاد الحرمين، توجد منها نسختان بالمكتبة الوطنية، رقم (1564) (1565) وهي تائية على بحر الطويل، لكتّها كثيرة الكسور العروضية، ضعيفة النّسج اللغوي، مطلعها:

نَشَقُّ الْقِيَا فِي فَدْفَدًا بَعْدَ فَدْفَدٍ * * * جِبَالًا وَأَعْوَارًا وَأَرْضًا وَطِيَّةَ

فَبِتْنَا بَوَادٍ قَدْ يَسْمُوهُ أَهْلُهُ * * * بِفَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ بِنْتَ الرِّسَالَةِ

وَأَبْيَارَ عُرْفَانٍ شَرَبْنَا مِنْ مَائِهِمْ * * * وَبِتْنَا تَجَاهَ الْبَيْرِ عِنْدَ الرُّمَيْلَةِ

وَتَمَّ نَزْلُنَا مَعْطِنًا بِمِيَاهِهِ * * * يَسْمَى خُلَيْصًا عِنْدَ كُلِّ نَبِيلَةٍ

ومنه ارتحلنا بعد جدّ مسيرنا * * * نزلنا بحمد الله في خير بقعة

3- رحلة البوني (-1139هـ) وهي رحلة مفقودة، لا نعرف عنها شيئاً سوى ما ذكره أبو القاسم سعد الله، الذي اعتبرها أول رحلة حجازية جزائرية: "وأول رحلة حجازية مذكورة في المصادر هي رحلة البوني المسماة (الروضة الشهية في الرحلة الحجازية) ومؤلفها هو أحمد بن قاسم بن محمد ساسي البوني... ولكن رحلة البوني تعتبر اليوم ضائعة، فلا ندري بالضبط ما كتب فيها"⁽⁴⁾.

4- رحلة الورثياني (-1193هـ) المسماة "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والآثار"، تحدث عنها المستشرق الروسي كراتشكوفسكي في دراسته عن الأدب الجغرافي العربي، قائلاً: "الكتاب يتمتع برواج كبير في شمال إفريقيا؛ إذ ظهرت له طبعة تونسية بالحجر في عام 1331هـ=1913م وطبعة أخرى جزائرية أيسر تناولا من تلك ظهرت في عام 1326هـ=1908م بعناية محمد بن شنب"⁽⁵⁾، والرحلة الورثيانية هي موضوع هذه الورقة البحثية.

5- رحلة أحمد ابن عمار (-1205هـ) المسماة "نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب"، وقد حقق الدكتور ابن أبي شنب نبذة منها ونشرها سنة 1902م، ومؤلفها أديب وشاعر زيادة على كونه فقيهاً، ولذلك جاء أسلوب الرحلة جيداً، مصبوغاً بلغة العصر التي يغلب عليها السجع المتكلف أحياناً، كقوله: "اعلم وفقني الله وإياك لمرضاته، وعصم كلامنا من الخطأ والخلل والزلل في حركاته وسكناته ولحظاته، أتّي عزمتم على الرحلة إلى الحجاز، عزماً نسجت حقيقته المجاز، أوائل سنة (1166) ست وستين ومائة وألف، وأنا لا أوي من القلق إلى منزل ولا أسكن إلى إلف"⁽⁶⁾.

لكنّ اللافت أنّ الرحلات الحجازية الجزائرية-خلال العصر العثماني وما سبقه من عصور- قليلة جداً بالمقارنة مع العدد الكبير للمثقفين الذين ذهبوا إلى الحجاز، حجاجاً أو مجاورين، من دون أن يؤرخوا لرحلاتهم، رغم أنّهم كتبوا في مختلف الفنون والمعارف، "وهذا مثلاً عبد الكريم الفكون الذي ظل طوال حياته تقريباً يقود ركب الحج من قسنطينة إلى الحرمين لا نعرف أنه كتب رحلة رغم أنه كتب في النحو والصرف والتراجم والشعر الديني وغيره"⁽⁷⁾، ممّا ضيّع على الأجيال اللاحقة معرفة التجارب التي مرّ بها أولئك الرّحّالون، وحجب عن الأدب الجزائري الكثير من الإمتاع الفني الذي كان -بلا شك- سيثري ساحته.

وفي تأريخه للرحلات الحجازية الجزائرية يرى أبو القاسم سعد الله أنّ "الحجاز في نظرهم (يعني الرحّالين الجزائريين) ليس مجرد بقعة جغرافية تزار للسياحة والعلم ونحو ذلك، ولكنها كانت قطعة أرض طاهرة تضم تاريخ الوحي والدعوة والأمة الإسلامية، ولذلك فهم يسجلون عواطفهم المتأججة لرؤية الحجاز وأهله والتبرك بترابه وهوائه"⁽⁸⁾، يقول أحمد بن عمار في مقدّمة رحلته: "لمّا دعّني الأشواق، التّافقة الأسواق، إلى مشاهدة الآثار، والأخذ من الرّاحة بالثار، وأن أهجر الأهل والوطن، وأضرب في عراض البید بعطن، وأن أخلع على السّالین السّاکنین الکرى، وأمتطي ظهر السّهر والسّرى، لبيّت داعيها، وأعطيت كريمة النّفس ساعياها، علماً أنّي ليس يظفر بمراد، من لم يتابع الإصدار للإيراد.. ولمّا انبرى هذا العزم وانبرم، والتّظى لآعج الشّوق وانضرم، وباح الوجد بالسرّ المكتوم، وصاح حيّ على الوصل القضاء المحتوم، شرعت إذ ذاك في المقصود، وأعددت طلسم ذلك الكنز المرصود، وأخذت في أسباب السّفر، والسّعد من وجد الأمانى قد سفر"⁽⁹⁾.

وبالإضافة إلى الرحلات الحجازية فإنّ للرحلات العامة نصيباً مهماً في التراث الأدبي الجزائري، مثل:

1- الرحلات السياسية والعسكرية: وهي الرحلات التي يكتبها الأدباء تأريخاً للحمولات العسكرية التي يقوم بها الحكّام والأمراء، وقد نشط هذا النوع من الرحلات بتشجيع باي الغرب الجزائري محمد بن عثمان الكبير الذي قاد العديد من المعارك مع متمرّدي الدّاخل، وضدّ الاحتلال الخارجي، فكتب ابن هطّال التّلمساني (رحلة الباي محمد بن عثمان الكبير إلى الجنوب الجزائري)، ولمصطفى بن عبد الله الدّحاوي (الرحلة القمرية في السيرة المحمدية)، يؤرّخ فيها لحملة محمد بن عثمان الكبير على مدينة وهران لتحريرها من الإسبان، خلال الفترة الممتدّة ما بين صفر 1205 هـ وانتهى في رجب 1206 هـ.

2- الرحلات العلمية: وهي الرحلات التي تسجّل مسارات المؤلّف في مرحلة طلب العلم، ومن لقيه من الأشياخ والعلماء، بالإضافة إلى تسجيل الإجازات والفهارس والأبّيات، مثل رحلة أبي عبد الله بن مرزوق (781 هـ) وهي الفصل الأخير من كتابه المناقب المرزوقية، حيث ضمّته نبذة عن حياته، واستطرد إلى ذكر رحلاته في طلب الإجازات والأسانيد في (فاس)، و(بجاية)، و(قسنطينة)، و(تونس)، و(الأسكندرية) و(القاهرة)، و(مكة)، كما ذكر توليه الإمامة والخطابة بـ(مالقة) و(غرناطة) في بلاد الأندلس..⁽¹⁰⁾

ومنها رحلة أبي راس النَّاصري (1238هـ) المسماة "رحلتي للمشرق والمغرب وغيرهما، ولقاء العلماء الأعلام، وما جرى لي معهم من المراجعة والكلام"، وهي الفصل الثالث من سيرته الذاتية المسماة "فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته"، تحقيق الدكتور محمد بن عبد الكريم، وطبعت سنة 1990م، تحدث فيها عن زيارته لـ(القرويين) و(الأزهر) و(الحرمين) و(فلسطين) وغيرها من البلاد، معرجاً على ذكر أبرز العلماء الذين لقيهم، وما جرى بينه وبينهم من المناقشات والمباحثات.

3- الرحلات التجارية: وهي الرحلات التي يكون الباعث عليها التجارة والتكسب، مثلما نجد ذلك في رحلة الطبيب ابن حمادوش المسماة "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال"، وقد ضمّنها جوانب من الحياة العلمية والسياسية والاقتصادية في المغرب، "فهي رحلة قام بها المؤلف لطلب العلم والتجارة، من مدينة الجزائر إلى تطوان ومكناس وفاس ثم عاد إلى الجزائر من تطوان"⁽¹¹⁾.

المطلب الثاني: لمحة عن رحلة الورثياني (الكاتب، والكتاب، والكتابة)

أولاً-الكاتب⁽¹²⁾:

هو الحسين بن محمد السعيد بن الحسين بن محمد بن عبد القادر بن أحمد الشريف، من أشرف (تافيلالت)، وُلد في (عرش بني ورثيلان)، قرب (بجاية) سنة 1125هـ / 1713م، وفي مسقط رأسه تعلّم على يد والده، فحفظ القرآن الكريم، واختلف إلى حلقات العلم التي كانت تقام في زاوية أسرته، كما تلقى العلوم الشرعية واللغوية على يد مشايخ زمانه، كالشيخ يحيى حمّودي، والشيخ يحيى عيسى، والشيخ بلقاسم بن علي، وغيرهم ممن رحل إليهم، كالشيخ أحمد زروق الفاسي-دفين مسراتة- الذي زاره وأخذ عنه، ومدحه بقصيدة شعريّة. (نسبه في 696/2)

رحل الورثياني إلى البقاع المقدّسة حاجاً ثلاث مرات على الأقل، (1153هـ- 1166هـ- 1179هـ)، والتقى في هذه الحجّات بالعديد من المشايخ والعلماء، الذين ذكر بعضهم في رحلته، كما توطّدت علاقته بالعديد منهم، مثل الشيخ محمد بن سالم الحفناوي، والشيخ أحمد العمروسي، والشيخ علي بن أحمد بن مكرم الصعيدي العدوي، وغيرهم من فقهاء المالكية في الأزهر.

وقد ترك الشيخ الحسين الورثياني العديد من المؤلّفات، هي في حكم الضائعة، إن لم تكن قد ضاعت بالفعل، وهي:

- شرح على منظومة القدسية للأخضري في التصوّف.
- حاشية على السكتاني.
- حاشية على كتاب المرادي.
- قصيدة ميمية في مدح النبي صلى الله عليه وسلم في نحو 500 بيت.
- شرح على خطبة عقيدة السنوسي الصغرى.
- رسالة جواباً على قول بعضهم "خضت بحراً وقفت الأنبياء بساحله".
- رسالة في حلّ اللغز الذي أرسله أحمد بن يوسف الملياني إلى علماء فاس فعجزوا عنه.
- الرحلة الورثيلانية الموسومة "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"، وهي الكتاب الوحيد المطبوع من كتبه المذكورة.

وفاته:

توفي الورثيلاني في مسقط رأسه ببجاية سنة 1193هـ / 1779م، وقبره هناك مزار مشهور، بقرية (أنو)، وبها مسجد يسمّى باسمه، تقام فيه الصلوات، ويقصده طلاب العلم الشرعي من أطراف البلاد.

ثانياً-الكتاب:

تعتبر رحلة الورثيلاني من أهمّ الرحلات الحجازية في التراث الجزائري، وتأتي أهميته من عدّة نواح:

الناحية الأولى: فهي رحلة مكتملة بنائياً وسردياً وتاريخياً، وصلتنا كما كتبها مؤلفها، بخلاف رحلة ابن عمّار مثلاً التي ضاع قسمٌ كبيرٌ منها، ولذلك فإنّها تمكّنتنا من قراءتها براحة كبيرة، وتتيح للباحثين والنقاد مادّة معرفية ثريّة.

الناحية الثانية: طول الرحلة، فهي تقع في جزأين اثنتين، قدّم فيها مؤلفها كلّ ما كان يريد أن يقوله، في مختلف أبواب العلم والمعرفة.

الناحية الثالثة: الطابع التوثيقي، فالمؤلف كان يوثق مختلف التفاصيل العلمية والجغرافية، بما يشبه تقنية الروبورتاج (Reportage) المستخدمة في الإعلام الحديث، "أي نوع من التقرير الصحفي الممزوج بالنص التاريخي والأنثروبولوجي والروائي والمذكراتي"⁽¹³⁾.

الناحية الرابعة: الثراء المعرفي، فالرحلة الورثيلانية تعكس ثقافة العصر العثماني، ومعارفه السائدة آنذاك، في مجالات الشريعة والتصوف والتاريخ والجغرافيا والفلسفة والمنطق وغيرها، إنها وثيقة مهمة عن التاريخ الثقافي للجزائر خلال تلك الحقبة.

إنّ هذه النواحي تعتبر مؤهلات مهمة تجعل من رحلة الورثيلاني جديرة بالبحث والتحليل، فهي وثيقة ثقيلة تاريخياً، دسمة معرفياً، يقول مختار حبار في وصفها: "هي الرحلة التي أملى فيها الورثيلاني مشاهداته وملاحظاته ولقاءاته التي دوّنها أثناء رحلاته الداخلية في أطراف البلاد، والخارجية إلى الحجاز والقاهرة، والبلاد التي مرّ بها كتونس وطرابلس الغرب وغيرها، فجاءت الرحلة بذلك طافحة بطرائف الأخبار، ولطائف الآداب، وتراجم مشاهير الرجال والأقطاب"⁽¹⁴⁾.

ثالثاً- الكتابة:

بما أنّ الكتابة الرحلية هي كتابة بينية، تقع في منطقة وسطى، على التماس مع الأدب والتاريخ، فإنّ طبيعة الكتابة الرحلية تأتي منسجمة مع هذا المنطق، فنجد رحلة الورثيلاني تضم خصائص الكتابة الأدبية، وأبجديات المنهج التاريخي.

الخصائص الأدبية لرحلة الورثيلاني:

لقد انبنت رحلة الورثيلاني على قواعد الكتابة السردية القديمة، التي كتبت بها مختلف الرحلات العربية القديمة، كرحلة ابن بطوطة وابن جبير والقلصادي وغيرها، فالرحلة جنس أدبي، يخضع لقواعد الكتابة الأدبية، بما فيها من تخيل، وحسن الصياغة، وجمال الصورة، هذه المقومات التي تستدرج المتلقين وتستهو القراء، وتميّز أدب الرحلة عن غيره من الأنواع الأدبية، مثلما يظهر فيما يلي:

الخاصية الأولى- البناء السردى:

فالرحلة الورثيلانية تقوم في الكثير من مقاطعها على أسلوب الحكيم، الذي يعتمد على مقومات السرد المعروفة في نظرية الأدب، مثل (الأحداث، والزمان، والمكان والشخصيات، والحوار

وغيرها)، وهي محاولة من الورثياني لجعل رحلته تحاكي الواقع، وتعيد صياغته بأسلوب يقترب من الحقيقة، كقوله مثلاً عن خروج وفود الحجيج: "ثُمَّ ظَعْنًا صَبِيحَةً يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ إِلَى أَنْ وَصَلْنَا إِلَى قَصْرِ الطَّيْرِ، فَحَطَطْنَا بِهِ الرِّحَالُ مَعَ الْغَيْرِ، وَتَلَاقَيْنَا مَعَ الْحَجَّاجِ، وَمَنْ يَرِيدُ الزِّيَارَةَ بِلَا احْتِجَاجٍ، وَوَصَلْنَا عِنْدَ الظَّهْرِ، وَانْتَفَى عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ الْبَأْسُ وَالضَّرُّ، فَوَجَدْنَا هُنَاكَ مَنْ كَانَ كَالشَّقِيقِ، سَيِّدِي أَحْمَدَ الطَّيِّبِ وَأَوْلَادَهُ، وَسَيِّدِي أَحْمَدَ بَنَ حَمُودٍ وَأَصْحَابَهُ، فَكَانَ مَا رَمَنَاهُ بِالتَّصْدِيقِ، فَاجْتَمَعَ هُنَاكَ فَضَلَاءٌ وَنُبَلَاءٌ وَأَوْلِيَاءٌ وَصُلَحَاءٌ بِالتَّحْقِيقِ، وَكُلُّ يَوْمٍ وَالْحَجَّاجُ تَأْتِي مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ. فَلَمَّا اجْتَمَعُوا، وَاشْتَرَوْا وَبَاعُوا، اهْتَمَّوْا بِالرَّحِيلِ. ثُمَّ إِنَّ كُلَّ فَاضِلٍ وَعَالِمٍ، وَذِي خَيْرٍ وَرَاغِبٍ، مِنْ أَهْلِ قَصْرِ الطَّيْرِ إِلَّا أَتَى إِلَى الرِّكَبِ يَزُورُهُ وَيَقْتَبِسُ نُورَهُ.." (15).

الخاصية الثانية- الأسلوب الوصفي:

يعتبر الوصف (Description) الطريقة المثلى لتصوير الأمكنة والفضاءات المختلفة، على عكس السرد الذي يصلح لصياغة الأحداث في تحولها الزماني. إن الوصف ينسجم مع أدب الرحلة باعتباره التقنية الأفضل لتسجيل المشاهدات، يقول سعيد يقطين: "الوصف فعلٌ مكاني، إنه توقيف لزمان السرد لمعانقة ثبات المكان" (16)، حيث يعتبر المكان عنصراً مهماً في الرحلة، التي تقوم على التنقل ضمن بيئات جغرافية واجتماعية مختلفة، تستوقف الكاتب في كل مرة، مثلما نلمس ذلك بوضوح في رحلة الورثياني، حيث يقوم الكاتب في كل مرة باللجوء إلى الوصف لتصوير الأماكن التي شاهدها في سفره الطويل إلى البقاع المقدسة، كقوله: عن مدينة بسكرة: "وهذه البلدة، أعني بسكرة، كثيرة المياه بين خلال البيوت، فكل بابٍ عنده ساقية من الماء تجري من ماءٍ حلوٍ كالعسل، ونخلها عظيمٌ وغلّتها كثيرة، أي زرعها، وكذا الفواكه خصوصاً، والزيتونُ فإنَّه كثيرٌ جداً، وهذه المدينة كانت قاهرة، عظيمة البنين، والجامعُ الأعظمُ يدلُّ على ذلك، فإنه لا نظيرَ له، وصومعته ما أحسنها وما أوسعها، غير أنَّ القديمة، أي المدينة؛ قد خربت وصارت دكاً" (17)، كما يقول في وصف زمّورة: "وزمّورة كثيرة المياه، وأرضها ذات زرع وضرع بلا اشتباه، طعامها جيد، وسوقها عامر مفيد، وفيها برج للنوبة من الترك" (18).

الخاصية الثالثة- الحضور الشعري:

الشعر ديوان العرب، ولن تترك العرب الشعر حتى تترك الإبل الحنين، لذلك فإنّ للشعر حضوراً كبيراً في الرحلة الورثيانية، بما يمثله من دعامة قوية لأدبية النص (Littéralité du Texte)، وسموّاً بخطاب الرحلة إلى مستوى الخطاب الفني، القادرة على الانتقال بالقارئ من

الإقناع إلى الإمتاع، ولهذا نجد الورثيلاني في رحلة كثير الاستشهاد بالشعر الذي كتبه بنفسه، أو أنشده لغيره.

فمن شعره قوله في وداع الأحبة⁽¹⁹⁾:

حَقِّي عَلَى الْأَوْطَانِ بِالرَّعَايَةِ * * * وَحَقِّهِمْ عَلَيَّ بِالْهَدَايَةِ

مَا أَصْعَبَ التَّوَدِيعَ لِلْأَحْبَابِ * * * وَعِنْدَهُ بِالْحَزَنِ وَاكْتِنَابِ

وَكَلَّ نَفْسٍ تَزْعَجُ لِلْإِفْتِرَاقِ * * * لِفَقْدَانِ الْمَأْلُوفِ بِاخْتِنَاقِ

حَبِيبَكُمْ بَوَيْلٍ مِنْهُ قَدْ رَجَعُ * * * وَسُمُّهُ لِلْعَظَمِ مِنْكُمْ قَدْ قَطَعُ

فَالْعَيْنُ قَدْ تَبَخَّلَ بِالدَّمْعِ * * * وَالْكَبِدُ مُحَرَّقٌ مِنَ الْمُدْوَعِ

وقوله أيضا عقب فراغه من أداء المناسك⁽²⁰⁾:

وَرُدَّتْ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ وَفُودُنَا * * * تَحْنُ لَهُ كَالطَّيْرِ حَنَّ لِمَأْوَاهُ

وَطُفْنَا طَوَافاً لِلْإِفَاضَةِ حَوْلَهُ * * * وَلُذْنَا بِهِ بَعْدَ الْجَمَارِ وَرُزْنَاهُ

وَمَنْ بَعْدِ مَا رُزْنَا دَخَلْنَاهُ دَخْلَةً * * * كَأَنَّا دَخَلْنَا الْخِلْدَ حِينَ دَخَلْنَاهُ

ونلنا أمان الله عند دخوله * * * كما أخبر القرآن فيما قرأناه

المنهج العلمي في رحلة الورثيلاني:

رغم التزام الورثيلاني بفنيات الكتابة الأدبية في تحرير رحلته، إلا أنه لم يهمل قواعد الكتابة العلمية، التي يتطلبها هذا النوع من المؤلفات، فالكااتب عالمٌ ديني له وزنه وأهميته، ومؤرخ، ومهتمٌّ بالأنساب كما يظهر من رحلته، وهذه السمات كلّها تستدعي أسلوباً خاصاً في الكتابة، من أجل تثبيت الحقائق، وغربلتها، وعرضها، ويمكننا تحديد ملامح المنهج العلمي الذي اتبعه الورثيلاني في رحلته على النحو التالي:

1- توثيق المعلومات ونسبتها إلى مصادرها، فالورثياني استعان بالعديد من الرحلات السابقة، في تحديد الأماكن، والمسارات، ووصف الأبنية والمساجد، كرحلة العياشي، والدري، ومسالك البكري وغيرها، كما كان يحيل على المصادر التاريخية لطمأننة القارئ، كقوله في مقدمة الرحلة: "وأن اعتمادي في ذلك على رحلة شيخنا وقودتنا ومن على الله و عليه اعتمدنا سيدي أحمد بن محمد ناصر الدرعي الجعفري... و أيضا من بعض كتب التاريخ كنبذة المحتاجة في ذكر ملوك صنهاجة ومختصر الجمان في أخبار أهل الزمان وكذا حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة و غيرها"⁽²¹⁾.

2- الاهتمام بالتاريخ المروي، فالورثياني كثير النقل عن المصادر المختلفة، ولا يقوم -في الغالب- بتحليل المرويات ونقدها، بسبب غلبة النزعة الصوفية على شخصيته، فهو يسلم ويستسلم للمرويات ولا يتعرض لها بالنقد والتمحيص، حتى ولو كانت مرفوضة عقلاً وواقعاً، مثل إirاده ..

3- إصدار الأحكام القيمية، فعلى قلة الآراء الشخصية في الرحلة الورثيانية؛ إلا أن المؤلف كان يبدي رأيه أحياناً في بعض المؤلفات أو الشخصيات، فيثني عليها، للتأكيد على أهميتها ومركزيتها في الرحلة.

4- اعتماد الشهادة الشخصية، فالورثياني كان يستعرض الكثير من الأحداث والشخصيات والمحطات المهمة، باعتباره شاهداً عليها، في موطنه بني ورثيلان أو في البلدان التي زارها.

5- استخدام اللغة العلمية التقليدية، فمن المعلوم أن اللغة العلمية تختلف عن اللغة العادية، من خلال اعتماد اللغة العلمية على المصطلحات المضبوطة، والصياغة الدقيقة⁽²²⁾، غير لغة الورثياني جاءت تقليدية، تبعاً للعصر الذي عاش فيه المؤلف، من خلال الإكثار من المفردات التالية (اللطيفة، والتتمة، والانعطاف، والغريبة، والنكتة)، وهذه كلها بمثابة المؤشرات الدالة، المعبرة عن حرص المؤلف على وضع القارئ ضمن إطار الخطة المرسومة سلفاً، وتوجيهه وفق أهداف الرحلة وغاياتها، أما في حال إنهاء فكرة ما فإن الورثياني يستخدم (وبالجملة، وحاصله)، إيداناً للقارئ بحسن الختام.

6- احترام المسار الكرونولوجي للرحلة، فمसार الرحلة كان ينمو تبعاً لزمّن الترحّل والانتقال، وكلّ الأفكار كانت تتطوّر ضمن هذا النسق.

المطلب الثالث: المضمون العلمي في رحلة الورثياني

على الرغم من أنّ الرحلة الورثياني هي رحلة لغايات دينية تتمثل في الحج إلى بيت الله الحرام، وزيارة البقاع المقدسة، إلا أنها احتوت على العديد من المباحث العلمية، والنقاشات المعرفية التي تعكس ثقافة العصر العثماني، وتعطي صورة عن مثقفي تلك المرحلة، مثلما يظهر في المضامين التالية:

أولاً-المضمون التاريخي:

تتضمن الرحلة الورثيانية الكثير من المحطّات التاريخية التي عايشها المؤلّف أو السابقة على عصر التأليف، فقد تحدّث عن تاريخ بجاية وقسنطينة ومسراتة ومكة والمدينة وبغداد، وغيرها، غير أنّه أفاض الحديث في تاريخ مصر، الذي استغرق حوالي (62) صفحة⁽²³⁾، معتمداً على حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، لجلال الدين السيوطي، فتحدّث عن الإسكندرية وأول من بناها، وعن فتح مصر، وعجائبها، ومزاراتها، وعن ملوك مصر من عهد نوح، ومن دخلها من الأنبياء، كما استطرّد متحدّثاً عن تاريخ الخلفاء من أبي بكر الصديق إلى بني أميّة وبني العباس، ثمّ رجع إلى ملوك مصر من الفاطميين، متوقفاً عند نهر النيل وتاريخه وما جاء فيه من الأخبار.

كما تقدّم الرحلة معلومات قيّمة تتعلّق بالتاريخ المحلي، لبلاد القبائل، وغيرها من المناطق التي مرّ بها الورثياني في طريقه إلى الحج، فقد عرّفنا بالكثير من العلماء والمشايخ والفضلاء، ممن عرفهم عن قرب، كأن يكونوا أساتذته أو طلابه، أو التقاهم وبادلهم الزيارات، وقدّم شهادته الشخصية عنهم، ومن جملة ما ركّز عليه منطقة زواوة، التي قال فيها: "وأما جبل زواوة فهو منفرد، وأولياؤه شهرتهم تغني عن ذكرهم، وتعظيمهم يقوم مقام بيانهم وتبيانهم، وجميل آثارهم، فلم يبق إلا ذكر هؤلاء ليتّم المقصد الرحماني، والنور الربّاني"⁽²⁴⁾، ثمّ استرسل في ذكر أعلام زواوة وشيوخها، بما يصلح لأن يكون مصدراً مهماً من مصادر التاريخ المحلي خلال عصر المؤلّف.

ثانياً-المضمون الجغرافي:

لقد اعتبر المستشرق الروسي إغناطيوس كراتشكوفسكي (I.Kratchkovski) الرحلة الورثيانية من جملة الكتب الجغرافية، ولذلك خصّها بفقرة في كتابه تاريخ الأدب الجغرافي العربي⁽²⁵⁾، بسبب ما تضمّنته من تفاصيل تخصّ جغرافيا البلدان، والمدن العربية التي زارها المؤلّف، متحدّثاً عن طبيعتها، وتجارها، وزراعتها، ومعالمها، وأسواقها، وجوامعها، وسكانها، من حيث

أخلاقهم وعاداتهم ولهجاتهم، كما قدّم الرّحالة معلومات مهمّة تتعلّق بمسالك الحج التي يمرّ بها الوفد الجزائريّ، وسعى كلّ المناطق والاستراحات التي مرّ بها، وهي كما ذكرها البحث عبد الرحمن عزي⁽²⁶⁾:

1- في الجزائر: أنو- بني حافظ- بني يعلى- أولاد يحي- وادي بوسلام- قصر الطير- الولجة- بريكة- مدّوكال- الزاب- بسكرة- أولاد سيدي صالح- سيدي عقبة- الزرائب- غزران- الخنقة- الحفنة.

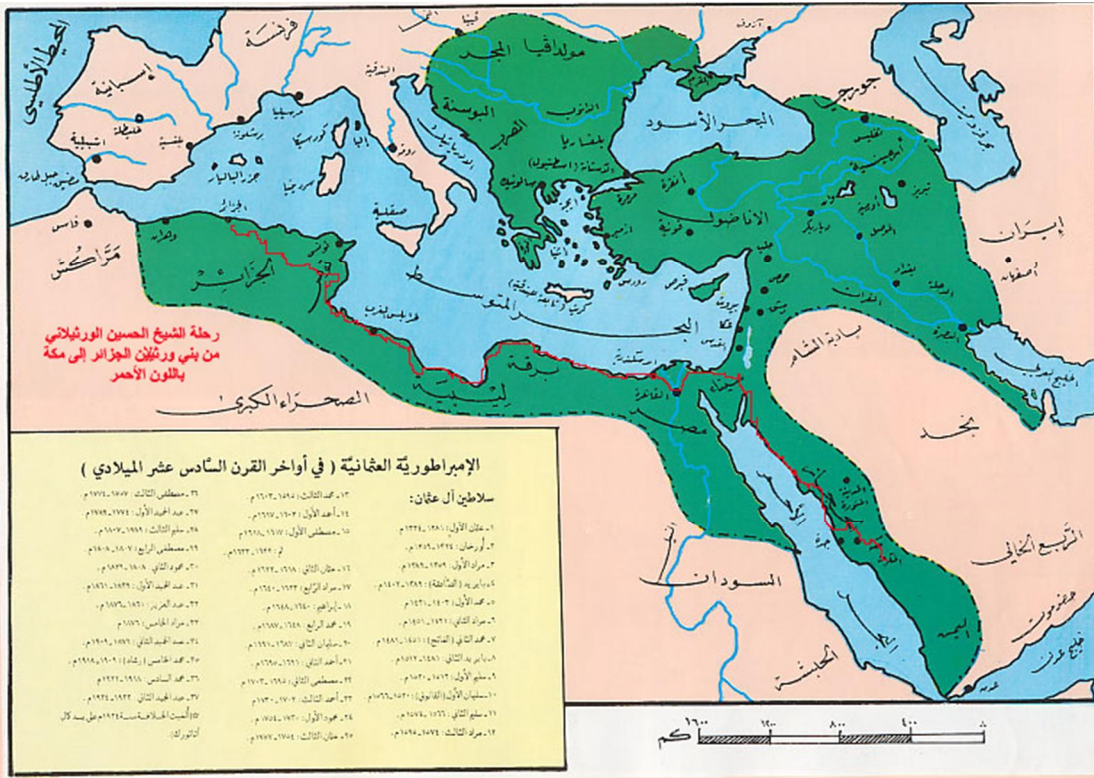
2- في تونس: توزر- نفطة- فريانة- نفزاوة- الحامة- الجريد- قفصة- السبخة- الزوارة- العامرة- الجريد.

3- في ليبيا: الماية- مغازة- طرابلس- تاجوراء- المنشية- وادي المسيد- ساحل حامد- مسلاتة- برقة- زيلتن- مسراتة- أبا كدية- تورغاء- السبخة- بئر حسان- بئر مطرو- الرعفران- سانية- النعيم- مغازة- الكحيله- الحدادية- أجدابيا- صعدة- عين الغزالة- درنة- المدار- الشمامة.

4- في مصر: وادي الرهبان- المنشية- بولاق- كفر حمام- إمبابة- الدار- عجرود- بئر الصعاليك- النابعة- بندر النخيل- صحح العقبة- إيله.

5- في السعودية: النخيل- وادي القريض- بئر العلاء- عش الغراب- أم العظام- بندر المويلح- بندر الأزل- وادي الأراك- العقبة السوداء- الحوراء- وادي العقيق- النبط- الخضيره- الحنك- مفازة- وادي النار- دار الوقدة- بدر- قديد- خليص-- وادي فاطمة- قيقيعان- مكة.

ويمكن ملاحظة هذا المسار من خلال الخريطة التي تجسّده بوضوح عالٍ⁽²⁷⁾:



ثالثاً-المضمون الديني:

تمثل الثقافة الدينية رأس مال العلماء والنخبة في التراث الإسلامي، لذلك يعتبر استعراضها في كتب الرحلات أمراً عادياً، خصوصاً عندما تكون الرحلة من الصنف الحجازي، التي تهدف إلى توثيق مسيرة الحج إلى بيت الله الحرام، كما في الرحلة الوريثانية التي نجد فيها الكثير من النقاشات في الشأن الديني التي كانت تدور بين المؤلف وبين العلماء المسافرين معه، أو الذين صادفهم في رحلته.

ف نجد على سبيل المثال نقاشاً فقهياً حول ظاهرة كانت شائعة بين الولاة والحكام يومئذ تتمثل في بناء الولاة المدارس والمنشآت العامة من المال المغصوب، فرأى صحة ذلك، وجوّز الدّعاء لهؤلاء الولاة بالخير والتوفيق، تغليباً للمصلحة العامة، مستشهداً بما ذهب إليه الشيخ عبد الكريم الزواوي في شرح الوغليسية⁽²⁸⁾. وانسجماً مع قاعدة تغليب المصلحة العامة؛ كان يرفض أي صدام مع السلطة السياسية، معتبراً ذلك مفسدة، قد تؤدي إلى الفتنة والتفكك، فدعا إلى طاعة ولاة الأمر في غير معصية، مستشهداً بالآثار النبوية حول وجوب التزام الجماعة، والانقياد للحاكم الشرعي⁽²⁹⁾.

كما كان يحذر من تقليد مدعي التصوّف، الذين يهدفون إلى تكثير المريدين والأتباع، وهم بعيدون كلّ البعد عن حقيقة الدين، مستشهدين بكلمة العز بن عبد السلام "كلّ حقيقة لا شريعة معها فهي باطلة، وكل شريعة لا حقيقة معها فهي عاطلة"⁽³⁰⁾، وقدّم تحليلاً قوياً ينتقد من يفرّق بين علم الشريعة والتصوّف، وذلك بسبب كثرة المنصرفين إلى طريق العبادة والسلوك من غير علم ولا هدى، فكثرت أتباعهم ومناصروهم، عن جهلٍ وتقليد أعمى. وتعتبر هذه اللفتة من الورثياني فتوى جريئة في زمن غلب عليه التصوّف والتسليم للمشايخ والأولياء، وهو ما يعبر عن وعي عميق بخطورة الجهل والبعد عن روح الدين.

إنّ هذه القضايا وغيرها تعكس شخصية الورثياني العلمية والدينية، فهو يعتبر نموذجاً للعالم المتمكّن من علوم الشريعة التي تسمح له بالإفتاء والتوجيه والإرشاد، كما أنّه قدوة بما يتحلّى به من الأخلاق العالية، والتربية الروحية التي اكتسبها من مخالطة الصّوفية والتلقّي على أيديهم، إنّه بمصطلح زمانه رجلٌ يجمع بين الحقيقة والشريعة.

الخاتمة:

تعتبر الرحلات الحجازية من فنون الكتابة التي ازدهرت في بلاد المغرب والأندلس، معبّرة عن الشوق والحنين إلى البقاع المقدّسة، ومؤكّدة على قيمة التواصل البشري بوصفها نزعة إنسانية، وحاجة نفسية تعكس فضول الإنسان ورغبته في التعرف على العالم. وميزة الرحلة إلى أرض الحجاز أنّها روحية دينية، يحصل من خلالها الانتقال على المستوى المكاني، وعلى المستوى الروحي أيضاً، إنّها رقيٌّ نحو الكمال، وعروجٌ نحو الله.

وقد استطاع الحسين الورثياني أن يقدّم من خلال رحلته صورة مكتملة عن فن كتابة الرّحلات الحجازية في الجزائر، خلال العصر العثماني، عبر مسارين، المسار الأدبي، والمسار العلمي. فمن خلال المسار الأدبي استطعنا أن نتعرف على الخصائص الأسلوبية للكتابة الرحلية، كما استفدنا معرفياً من عدّة حقائق تاريخية وجغرافية ودينية وثقافية وبليوغرافية.

إنّ الرّحلات في الثقافة العربية هي (دائرة معارف مصغرة) نظراً لتنوّع موضوعاتها، وتداخل مضامينها، لذلك تظّل عصيّة على التصنيف والفهرسة، إنّها كتابة تنسجم مع العصر الذي كتبت فيه، فتنوّع موضوعاتها ليس خلاصاً منهجياً كما يقول الأكاديميون اليوم، ولكنّه استجابة لطرق التأليف المعروفة في التراث العربي، التي تقوم على الاستطراد، إنّ هذا النمط الكتابي فيه محاكاة لطريقة تفكير الإنسان، التي لا يمكن حصرها في موضوع واحد، نظراً لاتسامها بالتلقائية

والاسترسال، فذلك الكتابة الرحلية هي كتابة تلقائية لا تعنيها الصرامة المنهجية، والحدود الفكرية المصنعة.

الاحالات والهوامش :

- 1 - كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1408هـ، 1987م، ط2، ص843.
- 2 - محمد رستم، أدب الشوق والحنين إلى طيبة والبلد الأمين، مجلة الأدب الإسلامي، رابطة الأدب الإسلامي العالمية، يناير 1997م ص83.
- 3 - أبو عبيدة البجائي: رسالة الغريب إلى الحبيب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، تعريف وتعليق وتلخيص أبي القاسم سعد الله، 1993م، ط1، ص25.
- 4 - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1401هـ 1981، (404/2).
- 5 - كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1408هـ، 1987م، ط2، ص845.
- 6 - أحمد بن عمار: نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، تحقيق محمد بن أبي شنب، مطبعة فونتانة، 1903م ص10.
- 7 - سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1401هـ 1981، (404/2).
- 8 - المرجع السابق (401/2).
- 9 - أحمد بن عمار: نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، تحقيق محمد بن أبي شنب، مطبعة فونتانة، 1903م ص3.
- 10 - ابن مرزوق التلمساني: المناقب المرزوقية، تحقيق سلوى الزاهري، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1429هـ - 2008م، ط1، ص298 - 311.
- 11 - سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1401هـ 1981، (398/2).
- 12 - انظر ترجمته في:
- تعريف الخلف برجال السلف، للحفناوي، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1991م، (397/1).
- التحفة المرضية في الدولة البكداشية، لمحمد بن ميمون الجزائري، تحقيق محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ط2، ص78.
- تاريخ الأدب الجغرافي العربي، للمستشرق إغناطيوس كراتشكوفسكي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1408هـ، 1987م، ط2، ص845.
- معجم أعلام الجزائر لعادل نويهض، در الوعي، الجزائر، 1438هـ، 2017م، ص451.
- الخطاب الأدبي القديم في الجزائر، لمختار حبار، دار الأديب (وهران)، الجزائر، (دت)، ص105.
- 13 - عبد الرحمن عزّي، التواصل القيمي في الرحلة الورثيانية (دراسة تم إعدادها لمؤتمر جامعة فيلادلفيا، الأردن حول "ثقافة التواصل"، نوفمبر، 2009)، ص2.
- 14 - مختار حبار، الخطاب الأدبي القديم في الجزائر، دار الأديب (وهران)، الجزائر، (دت)، ص107.
- 15 - الورثياني، الرحلة الورثيانية (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار)، تحقيق محمد بن أبي شنب، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 1429هـ - 2008م، ط1 (110/1).
- 16 - سعيد يقطين: السرد العربي مفاهيم وتجليات، منشورات الاختلاف (الجزائر)، دار الأمان (المغرب)، الدار العربية للعلوم ناشرون (لبنان)، 1433هـ - 2012م، ط1، ص171.

- 17 - الورثياني، الرحلة الورثيانية (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار)، تحقيق محمد بن أبي شنب، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 1429هـ - 2008م، ط1 (1/115).
- 18 - الورثياني، الرحلة الورثيانية (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار)، تحقيق محمد بن أبي شنب، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 1429هـ - 2008م، ط1 (1/108).
- 19 - الورثياني، الرحلة الورثيانية (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار)، تحقيق محمد بن أبي شنب، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 1429هـ - 2008م، ط1 (1/105).
- 20 - الورثياني، الرحلة الورثيانية (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار)، تحقيق محمد بن أبي شنب، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 1429هـ - 2008م، ط1 (2/471).
- 21 - الورثياني، الرحلة الورثيانية (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار)، تحقيق محمد بن أبي شنب، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 1429هـ - 2008م، ط1 (1/13).
- 22 - طالع في هذا الشأن كتاب اللغة العربية العلمية للدكتور صالح بلعيد، دار هومة، الجزائر، 2003.
- 23 - الورثياني، الرحلة الورثيانية (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار)، تحقيق محمد بن أبي شنب، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 1429هـ - 2008م، ط1 (2/640 - 702).
- 24 - الورثياني، الرحلة الورثيانية (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار)، تحقيق محمد بن أبي شنب، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 1429هـ - 2008م، ط1 (1/50).
- 25 - كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1408هـ، 1987م، ط2 ص 845.
- 26 - عبد الرحمن عزّي، التواصل القيمي في الرحلة الورثيانية ص 9 (مع التأكيد على أن البلدان المشار إليها أعلاه لم تكن معروفة بالحدود الجغرافية اليوم، ولكنها كانت تشكل جميعها وحدة جغرافية ضمن الدولة العثمانية).
- 27 - المرجع السابق ص 1.
- 28 - الورثياني، الرحلة الورثيانية (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار)، تحقيق محمد بن أبي شنب، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 1429هـ - 2008م، ط1 (2/737 - 738).
- 29 - الورثياني، الرحلة الورثيانية (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار)، تحقيق محمد بن أبي شنب، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 1429هـ - 2008م، ط1 (2/795 وما بعدها).
- 30 - الورثياني، الرحلة الورثيانية (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار)، تحقيق محمد بن أبي شنب، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 1429هـ - 2008م، ط1 (2/740).